

أنواع الصبر ودورها المحوري في تحديد مسار الحياة

كيف يمهد فهم أنواع الصبر الطريق إلى "القلب السليم"؟

يعتقد معظمنا أن الصبر يعني تحمل المصائب التي تحل بنا في الحياة؛ فإذا ما فقدنا عزيزاً ولم نجزع، اعتبرنا أنفسنا من الصابرين. ورغم أن هذا المعنى صحيح، إلا أنه قاصر. فالصبر له أنواع، ولا يقتصر على الصمود في وجه المحن فحسب، بل هو مفهوم أوسع بكثير. فالصبر، في جوهره، هو القدرة على التحمل وتقبّل كل ما يعترض طريقنا في الحياة. إنه فنّ يساعدنا على التريث والالتزام بهدوء حتى نبلغ الغاية المرجوة. وكل أمر يصعب علينا فعله أو تركه، فإن صبرنا عليه يُعدّ صموداً في وجه الصعوبة. الصبر هو أن نحتمل، وأن نقبل ما يأتي به القدر، سواء أحببناه أو نفرنا منه. فكلّ ما يثقل على النفس فعله أو تركه، ثم نغالبها فيه بثبات وإرادة، فهو صبر. غير أنّنا في لحظات الضيق كثيراً ما نفتح باب الشكوى: لماذا أنا؟ ولماذا ابتليت؟ ولماذا أثقلت بهذه المحن؟! فنقع إمّا في يأسٍ مُحبط، أو نُؤجّل ثواب صبرنا إلى قصورٍ نتخيّلها في الجنّة.

لكنّ حقيقة الصبر أبعد مدى وأعظم أثراً ممّا نتصوّر. فالصبر في جوهره كدواء شافٍ أو إكسير محيي، يُطهّر القلب ويهديه إلى مقام القلب السليم. فكلّ مرّة نصبر على طاعة الله، وكلّ مرّة نكبح رغبات النفس أو وساوس الشيطان، وكلّ امتحانٍ أو ضيقٍ نتحمّله دون شكوى ولا تدمر، فإنّنا نخطو خطوةً جديدةً نحو [القلب السليم](#). ذلك القلب هو جواز العبور إلى الجنّة، وهو سرّ الانسجام مع النعيم الأبدي. فلنُخصّ ممّا في أنواع الصبر المختلفة في حياتنا، ولنكتشف كيف يكون هذا السرّ العظيم طريقاً إلى سلام القلب ونقائه.

التعريف بأنواع الصبر

نحن من [جوهر إلهي](#)، كتّا عنده، ثم جئنا إلى هذه الدنيا زمناً قصيراً، وسنعود إليه من جديد. لكن الوصول إلى السكينة والسعادة الأبدية مشروط بشرط واحد أساسي: أن نحمل قلباً سليماً. والعنصر الأعمق في تكوين هذا القلب السليم هو الصبر. فالقلب تحاصره عوائق وحواجز عظيمة، معظمها يولد من نزعات النفس الدنيا ورغباتها. والانتصار على هذه الحواجز لا يتحقق إلا حين تنتصر [فطرتنا](#) على [طبيعتنا](#) الغريزية، ويُقام توازن بينهما. وهنا يبرز الصبر بوصفه السرّ الذي يمكّن الإنسان من اجتياز العقبات.

فأى كمال يُقدَّر للإنسان، وأى مقام رفيع يُراد له، لا يُنال إلا عبر بوابة الصبر. فهو القناة الوحيدة التي يمرّ منها الإنسان نحو الترقى. وهذا الصبر المصيري تتجلى آثاره الحاسمة في ثلاثة ميادين كبرى، تُعرف بأنواع الصبر، ويمكن تلخيصها في المحاور التالية:

الصبر في طاعة الله

حين نحبّ شخصاً بصدق، نسعى جاهدين لأن نرضيه ونلبي ما يريد، حتى لو كان ذلك منافياً لرغباتنا أو شاقاً على نفوسنا. هذا التحمّل والقدرة على مجابهة ما نكره هو عين الصبر. وكذلك روح الإنسان، حين نُفخت فيه، كالبذرة المغروسة في أعماق التراب؛ لا بد أن تشقّ طريقها عبر ظلمات الأرض لتخرج إلى النور وتزهو. فإن لم تحتمل ضغط التراب وصعوبة الخروج، فلن ترى النور، ولن يكتمل نموّها. وقد قيل إنّ الجنة حُفّت بالمكاره، أي أنّها مغلّفة بطبقات من المشقة والامتحان. فمن أراد الجنة لا بد أن يمتلك الجرأة والقوّة وسعة الصدر لاقتحام هذه المشقّات: كالجوع، والعطش، والفقر، والمرض، والقيود... وما أشبهها.

عندما نفخ الله من روحه فينا، أودع في كيّنا كل صفاته و أسمائه الحسنى بالقوّة، وبقي علينا أن نُخرجها إلى حيّز الفعل. والطريق الوحيد لذلك هو الصبر. كل اسم من أسماء الله، وكل مقام من مقامات القرب، لا يُنال إلا بصبر خاصّ يليق به. من هنا فإنّ الإنسان مدعوّ لأن يُخضع جسده وقلبه لأوامر الله؛ ليتزوّد من ذلك بالقوّة الروحية. والفطرة الإلهية في داخلنا لا تستطيع أن تسود على الطبيعة الحيوانية والنباتية والجمادية والعلمية في وجودنا إلا إذا غدّيناها بالطاعة: بالفرائض أولاً، وبالمستحبات ثانياً. حينها فقط تملك زمام القيادة على الطبيعة الدنيا.

وأما العامل الذي يعيننا على هذه الطاعة فهو الصبر: الصبر على الكسل، على الفتور، على الشكوك، على ضعف الهمة، وعلى تردّد الإيمان. ولهذا كان الصبر على طاعة الله من أعظم وأشرف أنواع الصبر.

الصبر أمام الوسوسة والمعصية

يقوم نموّ الإنسان ونضجه الروحي على صراع دائم بين الفطرة والطبيعة. فإذا تُركت الطبيعة بلا قيد، وأُجيببت كل رغباتها وشهواتها، استحالت وحشاً جامحاً وسلطاناً مستبدّاً يلتهم الفطرة الإلهية في داخلنا ويمزّقها. الفطرة بدورها ينبغي أن تفرض قيوداً على أبعاد الطبيعة المختلفة: الجمادية، النباتية، الحيوانية والعقلية. فلا تُسلم زمامها لكل نداء ولا تنقاد وراء كل شهوة أو حاجة زائدة، ولا تصغي لإغواءات الشيطان. هذا التوقّف، وهذا الرفض، هو الصبر بعينه.

الصبر هنا هو الحاجز الذي يمنعنا من تحميل أنفسنا أوزاراً تثقل برزخنا وأخرتنا وأبديتنا. فمن دون القدرة على اجتناب المعصية والابتعاد عن الحرام، يستحيل الوصول إلى القلب السليم، لأنَّ القلب السليم قلب طاهر من الأدران، نقي من الذنوب والأسقام. ولا بد أن يتسلَّح الإنسان بصبر واعٍ، يُدرِك ماهيته ويُدرب نفسه عليه حتى يصبح خُلُقاً راسخاً فيه. بهذا الصبر يمكنه أن يقاوم التلوُّث الروحي والمرض الأخلاقي فلا يقح فيه. إذن، فالصبر أمام الوسوسة والخطيئة هو أحد الأركان الأساسية للصبر، وبدونه لا يُمكن للإنسان أن يشقَّ طريقه نحو الطهارة القلبية.

الصبر أمام الامتحانات والبلاء

من أوضح صور الصبر وأشهرها هي الصبر على المصائب والشدائد. فجميع اختبارات الحياة، وما يرافقها من ابتلاءات وضغوط، هي جزء أساسي من الطريق نحو القلب السليم. إنَّ الله تعالى هو الطبيب الخبير بقلوبنا، العارف بما يُصلحها ويشفيها، ولذلك فهو يضح في طريقنا ابتلاءات متنوِّعة أشبه بوعاء محكم الإغلاق. هذا الوعاء لا يُفتح إلا بنار الصبر التي تذيب ما فينا من جزع وتسرع وشكوى وجحود، حتى ينقى القلب ويستعيد عافيته. فالمحن في حقيقتها أصوات تصدرها الطبقات الدنيا من وجودنا:

الجزء الجمادي يصرخ من الفقر والخسارة.

الجزء النباتي يتألم من المرض والوجع.

الجزء الحيواني يئن من الإهمال والهزيمة.

والجزء العقلي يضطرب خوفاً على الكتب والشهادات.

هذه التعلّقات والمحوبات الدنيوية إذا لم تُهدَّب، سلَّت حركة الإنسان وأوقعته في دائرة التذمّر والاعتراض على الله. وهنا يتجلّى الصبر كعلاج حاسم ينقذ القلب من الهلاك.

الصبر هو الذي يُعيد ترتيب معشوقاتنا ترتيباً صحيحاً، فيضع الله - المعشوق الأعلى - على القمة، بحيث لا يعود فقدان ما سواه سبباً لانهياننا. فالقلب الذي ذاق محبة الله يظل مطمئناً، حتى إن تضررت سائر أجزائه أو خسر شيئاً من متعلّقاته.

وهذا هو القلب السليم: قلب عرف كيف يُهندس معشوقاته، فأعطى لكل شيء قدره وحدّه، فحزن بقدر الحاجة، وفرح بقدر الحاجة، دون إفراط ولا انكسار. قلب بصير، صقلته التجارب، وربّته أنواع الصبر، حتى استقام على ميزان العدل والطمأنينة.